مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 14 العدد: 01 السنة 2022 ص 472 - 491

تاريخ الإرسال: 2021/05/07 تاريخ القبول: 2021/06/21
تاريخ النشر: 2022/03/17

إستراتيجية الخطاب الحجاجي في مقامة "الافتخار بين العشر الجوار" لعبد المهيمن الحضرمي

discourse in the The strategy of the persuasion Makamat of "Pride among the ten neighbors" By Abdul Muhaimin Al-Hadrami

نوار أمال [1]، بلردوح ثليثة [2]
جامعة أم البواقي (الجزائر)، [1]nouar.amel2021@gmail.com
جامعة أم البواقي (الجزائر)، [2]discourd19@gmail.com

الملخص:

يعدّ الحجاج آلية أساسيّة للتّواصل الخطابي ، حيث يرمي إلى التأثير في سلوك الآخرين وحثهم على التفاعل والتجاوب وفق إستراتيجية معينة ،تحددها الدّراية بالوسط ومراعاة السّياق. وإذا ما أمعنا النظر في المقامات كخطاب تواصلي ألفيناها مدونة لها طريقتها الخاصة في تقديم المعنى وتأثيرها في المتلقي ما يؤكد وجود قدرات حجاجية دفينة في ثناياها، ولهذا السبب كانت لنا رغبة البحث في خطاب مقامة (الافتخار بين العشر الجوار) عن أهمّ الاستراتيجيات الحجاجية التي انتخبها الكاتب لتجسيد أفكاره و تقريب رؤياه بغية استمالة المتلقي وإقناعه .

الكلمات المفتاحية: الإستراتيجيّة ، الحجاج ، الخطاب ، المقامة .

Abstract:

Persuasionis a basic mechanism for rhetorical communication, aimed at influencing the behavior of others and urging them to interact and respond according to a specific

strategy, determined by awareness of the surrounding environment and taking into account the context. If we look closely at the *Makamats* as a communicative discourse, we find a literary blog with its own way of presenting meaning and influencing the recipient, hence,it confirms the presence of persuasive abilities embedded within it. Consequently, we were incited to dig deeper into the discourse of Makamat (*Pride among the ten neighbors*) to look for its main persuasion strategies that were chosen by the writer to embody his ideas and bring his visions closer in order to motivate and persuade the recipient.

Keywords: strategy, persuasion, discourse, status

نوار أمال ، الإيميل: NOUAR.AMEL2021@GMAIL.COM

مقدمة:

تختلف استراتيجيات المتكلّم باختلاف المتلقي، فإذا كان المتكلّم مسير العمليّة الكلاميّة وموجّهها، وهو مهيّأ سلفًا للعب هذا الدور فإنّ المتلقي لبّ هذه العمليّة، يمتلك قدرات تؤهّله للانتباه والاستيعاب؛ وبما أن هدف المتكلّم المؤلف للكلام، والمنجز له عن وعي وإدراك وقصد هو إثارة المتلقي وتحفيزه استعدادًا للسّماع والإجابة، فإنّه يحتاج لتحقيق هذا الهدف بعد الدّراية بالوسط ومراعاة السّياق لطرق حجاجيّة، والطرق وسيلة تواصليّة تبلغية في العمليّة الكلاميّة، لذلك فهي الإجراء العملي الذي يُساعد على تحقيق أهداف العمليّة، وعليه يمكن تسميّة هذه الطرق بالإستراتيجية. فما هي الاستراتيجيات الحجاجيّة المستخدمة للإقناع في نص مقامة الافتخار بين العشر الجوار ؟ وما هو دور الحجاج في بناء خطاب المقامة، وما مدى مساهمته في التّواصل؟ .

1 . مفهوم الإستراتيجية:

حين نستكشف معنى لفظة (إستراتيجية) و اشتقاقها في المعجمات اللّغويّة ، لا نجد ذكرًا لها، لأنّها من المصطلحات المستقدمة من الثقافات الغربيّة .

و قد أرجع الكُتاب أصل كلمة (إستراتيجية) strategy إلى الكلمة اليونانيّة استراتيجوس strategos و التي تنقسم إلى شطرين ،[1]

- الشطر الأول: stratos و يعني الجيش .
- الشطر الثاني : A gos و يعني أَقود .

أي أن كلمة (إستراتيجية) تعني أقود الجيش؛ أمّا الصّفة منها والتي تُجمع فتعني وظائف وأعمال الجنرال بالمفهوم العسكري للكلمة، بمعنى الصفات التي يمتلكها الجنرال .

لذا فالإستراتيجية هي ،" فنّ قيادة عمليات جيش في ميدان القتال " [2] .

اتّسع الحديث عن (الإستراتيجيّة) و استخدمت في حقول المعرفة الإنسانيّة المتعددة و الدّراسات الأدبيّة حتى أنّ التّحديد الدقيق لدلالتها قد يصعب لأنّ كلّ حقل تستخدم فيه لفظة (إستراتيجية) تحمل معنى ذلك الحقل؛ فماهيتها في الحروب غير ماهيتها في علم النّفس و علم الاجتماع و إدارة المؤسسات .... لكنّها تتفق في شتى الميادين حول مفهوم عام، فهي ، " علم و فن ينصرفان إلى الخطط و الوسائل التي تعالج الوضع الكلي للصراع ... من أجل تحقيق هدف السياسة " [3].

فالإستراتيجية إذن مقترنة بوضع خطة أولاً ثم استغلال الوسائل المتاحة للوصول إلى الأهداف المرجوة ثانية ، و يعرفها الفيلسوف (ميشال فوكو) بثلاث معان رئيسية يقول ،" تستعمل كلمة الإستراتيجية عادة بثلاث معان،

- ✓ للتدليل على اختيار الوسائل المستخدمة للوصول إلى غاية معينة ، و المقصود بذلك هو العقلانية المستخدمة لبلوغ هدف ما .
- ✓ للتدليل على الطريقة التي يتصرَّف بها أحد الشركاء في لعبة معينة ، تبعًا لما يعتقد أنه سيكون تصرف الآخرين ، و لما يخال أن الآخرين سيتصوَّرون أنه تصرفه هو ، باختصار ، الطريقة التي نحاول التأثير بها على الغير .

- ✓ التدليل على مجمل الأساليب المستخدمة في مجابهة ما لحرمان الخصم من وسائله القتالية و إرغامه على الاستسلام " [4].

و تتفق مفاهيم فوكو للإستراتيجية مع أنها مفهوم يشير إلى رسم خطة يتم فيها جمع المعلومات المطلوبة بطريقة منتظمة لانجاز عملية التحليل و الخروج بعدد من البدائل (الإستراتيجية) و من ثم اختيار (الإستراتيجية) الأكثر تلاؤمًا مع الموقف.

و كما حاول كل حقل من حقول المعرفة استغلال مصطلح (إستراتيجية) لأهداف معينة قد تكون إجرائيّة أو منهجيّة أو غيرها فإنّ الأدب لم يكن بمنأى عن ذلك فقد اكتسى هذا المصطلح بدخوله الحقل الأدبي وصف جديد و مفهوم جديد عرف بإستراتيجية الخطاب أو الإستراتيجية الخطابية .

و تعتبر الإستراتيجية الخطابية عملية يعمدُ فيها المرسل إلى التخطيط قبل تنفيذ الكلام فلا كلام دون تخطيط مسبق ، حيث يتخيل المرسل الموقف الخطابي و يتدرب ذهنيا على أدائه و كيفية سيرورة الأحداث فيه و تسلسلها في عملية تنبؤ واعية تستند إلى معرفة عميقة بالسياق و بحالة المتلقي النفسية لإثارة انفعاله و التأثير فيه ليتمكن من التفاعل (مع مكونات الخطاب و صورته) المفضي إلى التواصل و التبليغ. والحقيقة أنّ التّواصل تحكمه استراتيجيات متعددة حسب مقاصد المتكلم و ماهية الرسالة و المتلقي ، و عليه برزت عدة استراتيجيات مختلفة منها ،الإستراتيجية الحجاجية موضوع درسنا .

2. مفهوم الحجاج في اللغة والاصطلاح:

1.2 لغة :

الحجاجُ لغة من (ح ا جَّ) ، جاء في لسان العرب، " حَاجَجْته، أحاججه، حِجَاجًا ومَحَاجَّة حتى حَجَجْته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها، والمحجة الطريق، وقيل الحجة ما دوفع به الخصم، وهو رجل مُحَاجٌّ أي جدل، والتحَاجُجُ التَّخَاصُم، وحاجه وحاججه وحجاجاً، نازعة الحُجَّة والحج ،الحجاج جملة من الحجج التي تؤتي بها للبرهان علي رأي أو إبطال أو طريقة تقديم الحجج والاستفادة منها والمُحَجَاجَةُ

هي إنتاج مجموعة حجج مرتبة بطريقة ما، قصد إثبات أو تقييد قضية من القضايا " [5].

وعلى هذا فالحجاج يصب معناه في النّزاع و الخصام المبني على الأدلة و البراهين، ليكون بهذا المعنى مُرادفًا للجدل ، و حدّ الجدل كما ذهب إليه ابن منظور (ت 711 هـ) ،" مقابلة الحُجَّة بالحجة . الجدل ، اللذد في الخصومة و القدرة عليها . و رجل جدِلُ، شديد الجدل جادلت الرجل فجدلته، أي غلبته. و الجدل شدة الخصومة . والجدل ، مقابلة الحجّة بالحجة . والمجادلة ، المخاصمة و المناظرة " [6].

وهنا يظهر جليا أن الحجاج مرادف للجدل من ناحية اعتمادهما على الخصومة القائمة على استعمال الحجج بغية التغلب على الطرف الآخر .

2.2 اصطلاحًا:

حمل مصطلح الحجاج في طياته قدرًا من اللّبس لاستعماله في ميادين معرفية مختلفة كالبلاغة و المنطق و الفلسفة ، ففي البلاغة العربيّة نجد الجاحظ (ت 255هـ) ربط الحجاج **(بالبيان)**، و يرى أنَّ ،" مدار الأمر و الغاية التي يجري إليها القائل إنّما هو الفهم و الإفهام ، فبأي شيء بلغت الإفهام و أوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع " [7].

سلط الجاحظ في تعريفه الضوء على ضرورة حضور المتلقي في العمليّة الكلاميّة لتحقيق الخطة الاقناعية التي تبرز في منطقية الحجة ، فالحجاج يتم عند الجاحظ بإفهام السامع المعنى المراد الوصول إليه بوضوح باستعمال كل ما من شأنه استمالة القلوب و سلب العقول ، لتتنازع البيان لدى الجاحظ وظيفتان هما ، الوظيفة الإفهامية و الوظيفة الاقناعية (الحجاجية) ، و هاتان الوظيفتان هما أساس النظرية التداولية في توجهات المعاصرين ، فقد عرف طه عبد الرحمن الحجاج بقوله،" فعالية تداولية جدلية، فهو تداولي، لأن طابعه الفكري مقامي و اجتماعي ، إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة و مطالب إخبارية و توجهات ظرفية ، ويهدف إلى الاشتراك جماعيا في إنشاء معرفة علمية ، إنشاء موجها بقدر الحاجة ،

وهو أيضا جدلي لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صورا استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة " [8] .

فالحجاج من وجهة نظر طه تنزّل ضمن الطابع التداولي الجدلي، فهو تداولي لأنّه يجمع بين متكلم و مستمع مع مراعاة السياقات المقامية و الاجتماعية، كأحوال المتخاطبين و مقاصدهما ، و هو جدلي لأنّ هدفه التأثير في المتلقي و إقناعه .

3. عبد المهيمن الحضرمي و مقامته " الافتخار بين العشر الجوار":

1.3 عبد المهيمن الحضرمي (676 _ 749هـ) [9]

هو الرئيس صاحب القلم الأعلى عبد المهيمن بن محمّد بن عبد المهيمن بن محمّد بن علي بن محمّد بن عبد الله بن محمّد الحضرمي [10] السبتي [11] يُكنى أبا محمّد.

ولد بسبتة سنة 676هـ، و ينسب لأسرة عُنيت بالعلم و عُرفت بالمجد و الرئاسة ، فبيتهم شهير يُعرفون ببني عبد المهيمن[12]. و يبدو أنّ والد الحضرمي اشتغل بالقضاء أيام بني العزفي .

لا مشاحة في أنّ الحضرمي، و قد سار على خُطى آبائه و أجداده، قد انصرف إلى حفظ القرآن و طلب العلم، و الأخذ عن الشيوخ الأجلاء [13]. و إن كان الحضرمي قد أخذ عن الجمّ الغفير من أئمة العلم و الأدب، فإنّه كان شيخًا لجمهور آخر من الطلبة «نذكر من بينهم المقَّريّ الجدّ و ابن مرزوق الكبير و ابن الخطيب و ابن خلدون» [14] .

استقر الحضرمي بمسقط رأسه سبتة حتى سقطت هذه المدينة سنة 703هـ بيد محمّد بن الأحمر المعروف بالفقيه[15]، مما اضطره للهجرة إلى الحضرة غرناطة سنة 705هـ، فكان لهذه الزيارة أثرها في استزادة الحضرمي بما كان في غرناطة من العلوم المختلفة، كما أنّه و أثناء فترة تواجده بالحضرة عكف على الكتابة «لملكها المذكور مُختصًّا بالوزير ابن الحكيم»[16].

لم تطل مدّة مكوث الحضرمي بالحضرة غرناطة، حتى عاد إلى مسقط رأسه، فلمّا استعاد بنو مرين مدينة سبتة، و جلس السلطان أبو سعيد على عرشها حتى استقدم الحضرمي إلى بلاطه ، و قلّده كتابة الإنشاء سنة 712هـ .

و بمجرد أن توفي أبو سعيد حتى استلم سدّة الملك ابنه أبو الحسن المريني الَّذي زاد في إكرام الحضرمي، و أحسن وفادته.

و معلوم أنّ قلوب الملوك تتجاذبها الأهواء و النزاعات، فمكانة الحضرمي قد تزحزحت، بسبب غياب هذا الأخير عن واقعة القيروان إثر إصابته بالنّقرس، و لكن سحابة الغضب هذه سرعان ما انجلت حين افتقد السلطان أبو الحسن مكانة الحضرمي فردّه إلى سابق عهده.

رحل الحضرمي إلى تونس رفقة سلطانه، و توفي بها سنة 749هـ إثر إصابته بالطاعون.

2.3 مقامة الافتخار بين العشر الجوار:

تطرق عبد المهيمن الحضرمي في مقامة (الافتخار بين العشر الجوار) إلى موضوع جديد قديم فإن كان سابقوه عقدوا مفاخرات بين مدينتين أو شجرتين، فإنّه عمد إلى عقد مفاخرة بين عشر جواري،« وَقَدْ دَارَ بَيْنَهُنَ عِتَابٌ، بِأَلْفَاظٍ تَعْجَزُ عَنْهَا أَلْسِنَةُ الكُتَّابِ، بَيْضَاءٌ وَسَمْرَاءٌ، فِي مُفَاتَنَةٍ كُبْرَى، وَكَامِلَةٌ وَقَصِيرَةٌ ، فِي مُعَاطَاةٍ كَثِيرَةٍ ، وَسَمِينَةٌ وَرَقِيقَةٌ، فِي مُعَانَبَةٍ حَقِيقِيَّةٍ، وَعَرَبِيَّةٌ وَحَضَرِيَّةٌ، فِي مُجَادَلَةٍ قَوِيَّةٍ، وَعَجُوزٌ وَ صَبِيَّةٌ ، فِي مُخَاصَمَةٍ بَذِيَةٍ »[17] .

و مثل هذه المفاخرة دارت رحاها في كتاب ألف ليلة و ليلة، مع اختلاف في عدد الجواري، فمفاخرة الحضرمي بين عشر جواري كما سبق الإشارة، أمّا المفاخرة المعروضة في قصص ألف ليلة و ليلة، فقد دارت بين ستِّ جواري (بيضاء و سمراء ، سمينة و هزيلة ، صفراء و سوداء)، علمًا أنّه لا يوجد «تماثل في العَرْض و لا في التصميم بين مقامة صاحبنا و قصَّة ألف ليلة . مما يدّل على أنّه ليس هناك استيحاءٌ مطلقًا من أحد الجانبين، و لعلَّها فكرة شعبية كانت شائعة في القصص العاميّ فاستوحى منها كاتبنا وقاصُّ ألف ليلة و ليلة»[18] .

4 . أساليب العرض الحجاجي في مقامة الافتخار بين العشر الجوار:

يتطلب تصميم استراتيجية حجاجية تخطيط مسبق شامل و منظم ، يتم قبل تنفيذ الكلام . فالعمليّة الكلاميّة الحجاجيّة نظام متكامل ، تحكم مكوناته مجموعة من العلاقات ، هدفها التأثير في المتلقي و لفت انتباهه . فمتى حُددّ السّياق ، و برزت الرّسالة ، و تم مراعاة حال المتلقي ، و ظهرت علائق الاتصال ، و تحققت مقاصد الكلام ، و توفرت الكفاءة اللّغوية و التّداوليّة اللازمة ، جاز الحكم باتباع المتكلّم استراتيجيّة حجاجية أكثر تلاؤمًا مع الموقف، ما يجعل المتلقي و هو العنصر المسؤول عن استقبال الرّسالة على أتم الاستعداد " ليشاركه في الأفكار والمعلومات، أو إبداء رأيه في مضمون الرّسالة " [19] .

من هذا المنطلق فإنّ الإستراتيجيّة الحجاجيّة تقوم على خطة المحاجج التي انتخبها لإقناع السامع و صرف وجهته السماعية و طاقته الذهنية و العاطفية إلى المحاجج فقط . و يبدو أنّ هذه الخطة هي خطة حاضرة غائبة في الآن نفسه ، فهي حاضرة في ذهن المحاجج مغيبة عن المتلقي الذي يكون وسيلته لسبر أغوارها و الوصول إلى مكنوناتها باعتماد التفسير و التأويل ليتساوي في هذه النقطة الحجاج و الإستراتيجيّة . و بالنظر إلى هذا التساوي يجدر بنا الإشارة إلى أنّ تأسيسي الخطاب الحجاجي و تحقيق خطته الاقناعيّة يحتاج إلى استحضار جملة من الروابط و العوامل الحجاجيّة المتكأة على حضور سليم للفظ المفضي إلى تجسيد صحيح للمعنى ما يضمن علاقة منطقية بين الحجة و نتيجتها .

يتأسس النّص الحجاجي على جملة من الآليات و فيما يلي تفصيل ذلك،

1.4. الحجة القرآنية:

حرص الحضرمي على استحضار النّص الغائب (النّص القرآني) ثمّ أضفى عليه من تجاربه ، ما جعل النّص الحاضر يتداخل معه، تداخلاً يصعب معه الفصل بينهما، فتحس أنّهما بمثابة النّص الواحد ، و بهذا تقوى حجة النّص، ويعضد دليله، فيتمكن إمّا من إفحام الخصم ، أو التأثير في المتلقي و حمله على المشاركة في

أفكاره و تبني آرائه فـ،" الدليل على المقصد إذا استند إلى النص قويت الحُجة، وسلَّم له الخصم، و أذعن له المعاند" [20] .

ويطلق الباحثون المعاصرون على تضمين النّص بالشواهد "الحجج النقلية" و يسميها محمد العمري " حجج جاهزة" ،" تكتسب قوتها من مصدرها و من مصداقية الناس عليها و تواترها" [21].

كان لكتاب الله عزَّ وجلَّ حضور قوي في نصنا، كيف لا و هو الَّذي بهر فصحاء العرب بعذوبة لفظه، ورقة عباراته، وإعجاز بلاغته، وروعة أسلوبه، لذلك وجدنا صاحب المقامة سباقًا للاغتراف من بحره الَّذي لا ينضب، رغبة منه في الارتقاء بمستوى خطابه . فقد وظّف كاتب المقامة النّصَ القرآني على نحو واسع، و هذا راجع إلى ثقافته الدينية الكبيرة، وذاكرته المتوقّدة، وبديهيته الحاضرة،ممّا هيأ له قدرة هائلة على استحضار النَّص القرآني في الموضع الَّذي يتطلب الاستعانة به .

أغفل صاحب المقامة الإشارة إلى الأخذ من القرآن، كأن يقولوا،(قال تعالى، وقال عزَّ وجل)، بل اكتفى بذكره في ثنايا كلامه وكأنَّه جزء من مقامته، وهو بذلك يحاول إحاطة إنتاجه الأدبي بهالة من القداسة ، لذا يعدّ الاستشهاد بالقرآن الكريم نهاية التّطور الَّذي يطمح النَّص للوصول إليه .

استشهد عبد المهيمن الحضرمي من القرآن الكريم، فيقول،«الحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ الإنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، وَ جَعَلَهُ أَفْضَلَ الحَيَوَانِ»[22] محيلاً إلى قوله تعالى، ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[23] يوظف الحضرمي الصورة القرآنية لخدمة غرضه في استنطاق الجارية السمراء بما يلائمها، و قبل أن يؤكد القرآن حقيقة خلق الإنسان في أحسن تقويم أقسم بالتين، و الزيتون و طور سنين و هو الجبل الَّذي سمع فيه موسى كلام الله، و البلد الأمين و هو مكة المكرمة . قد يتساءل السائل ما سبب عودة الجارية السمراء إلى هذه السورة بالذات للاستشهاد بها ؟ و الإجابة نرجحها تعود إلى سببين اثنين لا ثالث لهما، الأوّل أنّها احتجت بنص حاضر و هي تريد به نصًّا غائبًا، و النّص الغائب هو القسم الَّذي ابتدأت به السورة (التين و الزيتون) ، إنّ المتأمل في لون هاتين الثمرتين المباركتين يجد أنّ لونهما أسود، لكن

على الرغم من ذلك أقسم بهما القرآن الكريم ، ليؤكد ما فيهما من قيمة غذائية كبيرة، وهذا هو مربط الفرس و دليل الجارية السوداء و حجتها فهي تريد أن تفاخر الجارية البيضاء بهذه الآية لتشعرها بقيمتها على الرغم من سوادها .

والسبب الثاني أنّ الجارية السّمراء تريد أن تخبر البيضاء أنّ الله كرم ابن آدم بخَلقه في أحسن تركيب ، و أقوم هيئة في تفاصيل جسمه ، واستقامة عوده ، وتناسق أبعاده ، وغير ذلك من الصِّفات الَّتي خصّه الخالق بها ، وهذه الصِّفات بحدّ ذاتها نعمة توجب الإنسان أن يشكر خالقه عليها بغض النظر عن لون بشرته إن كانت سمراء أو بيضاء .

ومن الشواهد القرآنية أيضا نلمح مثلاً أثر قصّة (غرق فرعون) عند عبد المهيمن الحضرمي، في المعاطاة الواقعة بين الصبيّة و العجوز، فتقول هذه الأخيرة « فَانْظُرِي أَيتها الصَّبِيَّةُ مَنْ يَكُون لك عَوْنٌ، وَ لاَ تَمْشِي عَلَى أَثَرِي فَتَغْرَقِي كَمَا غَرِقَ فِرْعَونٌ »[24] .

تتحدث قصّة (غرق فرعون)، عن رجل عُرف على مدار التاريخ بالطغيان، و الإسراف في الظلم والتسلّط على الآخرين، و من شدة ظلمه لنفسه ادعى الألوهيّة من دون الله، فكانت عاقبة ادعائه أن أغرقه الله و من معه ليكون عبرة لغيره من الجبابرة و الطّغاة. و القصّة كما وردت في آيات الذكر الحكيم أنّ موسى عليه السلام بعد أن ضرب بعصاه البحر انفلق، فكان كلّ فرقٍ كالطود العظيم، ليسير بعدها بقومه و يعبر بهم البحر فما كان من فرعون و جنوده إلاّ أن تبعوه، حتى إذا تعمّقوا في الدخول أمر الله البحر فانطبق عليهم ليغرق فرعون ومن معه، قال الله تعالى،﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْن بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ اليم مَا غَشِيَهُمْ﴾[25] .

يستفيد عبد المهيمن الحضرمي من قصة "غرق فرعون" في بناء أحداث قصّة المفاخرة الَّتي دارت بين الجارية الصبيَّة و العجوز، ليزجها في أحداث شبيهة بالأحداث الَّتي نجدها في قصة (غرق فرعون) فالعجوز ترى أنّها الأقدر والأمتع للرجال وحجَّتها في كلّ ذلك دامغة و قويّة خلافًا للجارية الصبيّة . فبعد أن اغترت بجمالها و صغر سنّها ،أصبحت متكبرة ظالمة طاغية، لا عمل لها إلاّ اقتفاء أثر

العجوز، فتكون بذلك قد أتت عملاً باطلاً، لذا ستكون نهايتها الغرق في شر أعمالها، كما غرق فرعون، فعلى الرغم من رؤيته للبحر حين انشق فإنَّ عزّة نفسه أبت عليه التراجع و الاعتراف، و ظلّ يقتفي أثر موسى و أتباعه، حتى أطبق الله عليه البحر فمات غرقا.

ولعلّ الدافع إلى إقامة مثل هذه العلاقة بين الحدث الديني والحدث المقامي هو النهاية السيئة لكلّ من فرعون والجارية الصبيّة، ومن الواضح أن العلاقة بين النّصين الديني و المقامي مبنيَّة على التوازن المفضي إلى المشابهة، ونوضح ذلك من خلال المخطط الآتي:

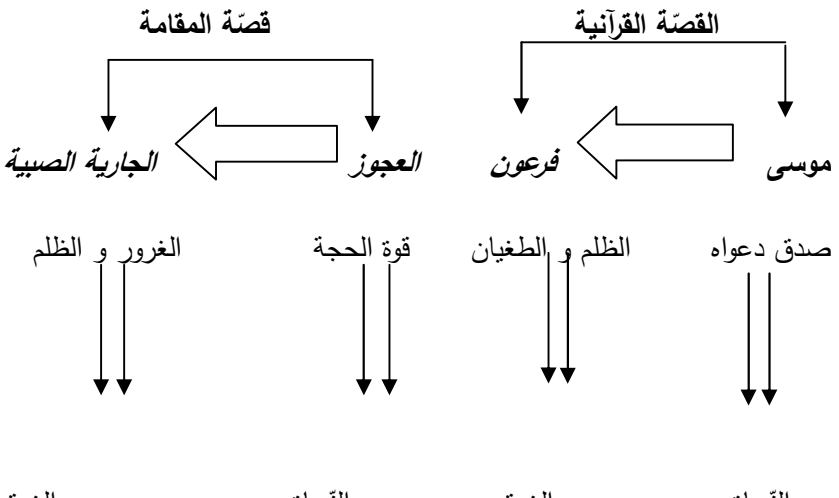

وعليه فاحتضان النّص المقامي لهذا السيد الكريم، أضفى عليه سحرًا وحيوية، بما يحمله من خصائص و سمات كالدّقة في التصوير، و قوّة الإيحاء، فضلاً عن الإعجاز اللّغوي، كلّ هذا كان محفزًا قويًّا اتّكأ عليه الكُتّاب لإثارة ذهن المتلقّي ، و التأثير في نفسيته .

2.4.التشبيه:

يعدّ التشبيه من الآليات الحجاجية المدرجة بوفرة في النّص المقامي ، و تظهر قوة التشبيه الحجاجي في مدى تقريبه الصورة من ذهن المتلقي و مدى التأثير فيه . فاستعماله في، " الخطاب يزيد للقوة الحجاجية العبارة اللغوية، فيؤثر المتكلم وفي نفسية المتلقي على إيجاد وجه الشبه بينهما وحينها تتجلى له الفكرة ويتضح له المعنى" [26].

وهذا الدور الذي اختص به التشبيه هو الذي أهله الدخول تحت لواء الآليات الحجاجية.

ابتدأ الحضرمي مفاخرته بين الجاريتين البيضاء و السَّمراء، و جعل الصّفة المشتركة بينهما (المفاتنة الكُبرى)، و قد نجح في رسم حركة الجارية البيضاء، أثناء تقدّمها لمعاتبة السَّمراء . يقول، « وَإِذَا بِجَارِيَّةٍ يَغْلُبُ ضِيَاءُ وَجْهِهَا ضِيَاءَ الشَّمْسِ ، فَوَقَفَتْ بَيْنَ الصُّفُوفِ وَسَلَّمَتْ بِبَنَانِهَا الخَمْسِ »[27].

نسج الحضرمي خيوط المفاخرة بين الجاريتين، فحصر جمال البيضاء و هي تفاخر نظيرتها السَّمراء في عدّة صفات مثل،(القد ، الخد ، الجبين ،الثغر ، الوجه ، الشعر ...) و في ذلك يقول « أَلاَ وَإِنَّ عَلَى قَلْبِي جَمْرَةٌ، مِنْ مُعَاتَبَتِكَ يَا ذَاتَ السُّمْرَةِ أَعِنْدَكِ يَا سَمْرَاءُ مَا عِنْدِي، وَ لَيْسَ قَدُّكِ كَقَدِي وَلاَ خَدُّكِ كَخَدِي، جَبِينِي ذُو ابْتِهَاجٍ، وَ**ذَوَائِبِي**[28] كَقِطَعِ **الزَّاجِ**[29]، وَرَشْحُ عَرْقِي[30] كَمِسْكِ **أَذْفَرِ**[31]يَرْشُحُ مِنْ تَحْتِ **البُرْدِ** وَ**المِغْفَرِ**[32]، وَ ثَغْرِي أُقْحُوَانٌ، وَدِيبَاجُ وَجْهِي **أُرْجُوَانٌ**[33]، وَإِنْ أَسْبَلْتُ شَعْرِي المَضْفُورَ فَظَلاَمُ لَيْلٍ عَلَى بَيَاضِ **كَافُورٍ**[34]»[35].

إنّ المتأمل في هذا المقطع التصويري يجد أنّ الجارية البيضاء مالت إلى استخدام التشبيهات في قولها (ذوائبي كقطع الزاج، رشح عرقي كمسك أذفر) و الحقيقة أنّها تشبيهات عاديّة تتكوّن كلّها من مشبه (الذوائب، رشح العرق) و مشبه به ((قطع الزاج ، مسك أذفر) و أداة التشبيه (الكاف) ، و استعمال الجارية البيضاء للتشبيه العاديّ دليل على أنّ سواد ذوائبها ، و طيب رائحة عرقها أمور عاديّة طبيعية في جسدها .

قدمت الجارية البيضاء في هذا المقطع تشبيهان (ذوائبي كقطع الزاج ، و رشح عرقي كمسك أذفر) ، و هما بمثابة الدعامة و الحجة لتوضيح الفكرة التي تتوخى إيصالها إلى المتلقي ، و يبدو أنّ المشبه به حاضر في ثقافة المتلقي من خلال مداعبة حاستين أساسيتين لديه تشكلان منابع للمعرفة البشرية ، و هما حاستي الرؤية و الشم ، لتتكأ الحاستين على أداة التشبيه الكاف لبساطتها فقولها ، كقطع الزاج أبلغ من قولها سوداء الذوائب ، و قولها ، كمسك أذفر أشد بلاغة من قولها طيبة الرائحة .

و يمكن تجسيد الصورة التشبيهية في بعدها الإقناعي كما يلي،

المقدمة الكبرى ، ذوائبي كقطع الزاج .

المقدمة الصغرى ، الزاج شديد السواد.

النتيجة ، الذوائب سوداء

المقدمة الكبرى ، رشح عرقي كمسك أذفر .

المقدمة الصغرى ، مسك طيب الرائحة.

النتيجة ، طيب رائحة عرقها .

فإذا ما جمعنا المقدمات الكبرى نخلص إلى النتيجة النهائية للتشبيه العادي و هو جمال الجارية البيضاء بسبب سواد ذوائها و طيب رائحتها و هي أمور عادية طبيعية في جسدها.

و تأكيدًا لمضمون التشبيه الأول و حتى تطمئن الجارية البيضاء من وصول تأثيرها إلى المتلقي و أنّه أصبح مدركًا إدراكًا كاملاً لفكرتها لجأت الجارية البيضاء إلى التشبيه البليغ في قولها، (ثغري أقحوان، ديباج وجهي أرجوان، إن أسبلت شعري المضفور فظلام ليل على بياض كافور) لتعتمد بذلك في رسم هذه اللوحات التشبيهية على مخزونها البصري، فراحت تطلق التشبيهات المتنوعة و هي تصف جمالها، مع حذف أداة التشبيه، لتمزج بذلك المشبه و المشبه به. شبهت الجارية البيضاء بياض أسنانها بالأبيض الناصع من زهر الأقحوان، ثمّ عمدت إلى تشبيه الحمرة الّتي تعلو وجهها بالزهر الأحمر لشجرة الأرجوان، و لم تغض البصر عن سواد شعرها، فقد

شبهته بسواد الليل و الشعر الأبيض الَّذي يتخلله شبهته ببياض المادة المستخلصة من شجرة الكافور، و بذلك جاءت الصور ة في هذه التشبيهات حسية مشبهة بصورة حسية أخرى. فمن خلال استدعاء هذا التركيب التشبيهي زادت الطاقة الحجاجية لخطاب الجارية ، فالتشبيه البليغ شحن فكرة الجارية بطاقة حجاجية أكبر جعلتها تطمئن لوصول فكرتها إلى ذهن المتلقي كون التشبيه البليغ أبلغ في إثارة وعي المتلقي" [36].

و لتردّ السَّمراء على البيضاء تقدمت في حركة رشيقة مسلمة بأطراف أصابعها، ثمّ ،« حَطَّتْ اللِّثَامَ عَنْ وَجْهٍ شَهِيٍّ **الالْتِثَامِ**[37]، وَ أَبْلَغَتْ فِي السَّلاَمِ، وَأَقْبَلَتْ تَوَاضُعًا عَلَى رُؤُوسِ الأَقْدَامِ»[38].

لقد آثر الحضرمي في هذا المقطع اعتماد ظاهرة:

3.4 السَّجع المتوازي :

حيث تم تقسيم المقطع إلى وحدات منتظمة و متواترة ، علمًا أنّ هذا الانتظام يعتمد على طول الفقرات ، فكلّما كانت الفقرات أقصر كانت الأصوات المعتمدة في السَّجع أكثر وضوحًا و قوّة ، علمًا ،«أنَّ الأصل في السَّجع إنّما هو الاعتدال في مقاطع الكلام، و الاعتدال مطلوبٌ في جميع الأشياء ، و النّفس تميل إليه بالطبع»[39]. لذلك نقول إنّ الحضرمي لجأ إل مثل هذه الفقرات المسجوعة بغية التأثير في المتلقّي ، و خلق مبرر من أجل دوام حلقة التواصل معه .

و إن كانت الجارية البيضاء قد ركزت على صفاتها الخُلقية، فإنّ السَّمراء، جعلت لونها الحكم الفاصل بينهما. تقول ، « مَازَالَ طَعَامُكِ قَلِيلَ المِلْحِ، وَجَفْنُكِ كَثِيَرَ الرَّشْحِ، وَلَبَنُكِ أَذَى، وَعَسَلِي أَنَا غِذَا، وَلَوْنِي لَوْنُ الخَمْرِ، وَطَعْمِي طَعْمُ التَّمْرِ»[40].

و إذا كانت مفاخرة الجاريتين البيضاء و السَّمراء مبنية على إبراز المفاتن و الخلال الجميلة، فإنّ مفاخرة الجاريتين الطويلة و القصيرة، جاءت مبنية على الهجاء المقذع، فهاهي الجارية القصيرة تصم الطويلة بتشبيهات عديدة، مثل تشبيهها بالزرافة . تقول، « يَا شَقِيقَةَ الزَّرَافَةِ، إِلَى كَمْ تُطِيلِينَ هَذِهِ **الخُرَافَةَ**[41]، يَا نَاقَةَ **العَشِيرِ**[42] وَقَصَبَةَ **النَّشِيرِ**[43]، وَيَا كَامِلَةَ **الصَّادِ**[44]، وَ قَلِيلَةَ **القُصَّادِ**[45]، نَحْنُ أَهْلُ المَعَانِي الرَّقَاقِ وَفِتْنَةُ

العُشَّاقِ، وَعَلَى مَنْظَرِنَا طَلَاوَةٌ، وَ رَوْنَقٌ وَ حَلَاوَةٌ، فَأَرَى لَكِ مِن الرَأْيِ وَ التَّدْبِير أَنْ تَأْخُذِي مَعِي فِي التَّقْصِيرِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَي خَلَقَ الكَامِلَ وَ المُتَوَسِّطَ وَ القَصِيرَ عَلَى أَنَّ القِصَرَ وَ الكَمَالَ، إِنَّمَا هُوَ فِي الأَفْعَالِ »[46].

بعد الكلام الجارح الَّذي نطقت به الجارية القصيرة في مواجهة نظيرتها الطويلة، نجدها تنهي وصلتها الهجائية بحكمة نتداولها في أيامنا هذه، فالمهم في المرأة ليس جمالها، بل أخلاقها و أفعالها.

اعتمد الحضرمي في هذا المقطع على:

4.4 الاستفهام: في قوله ،«إلى كم تطيلين هذه الخرافة» مما أسهم في لفت انتباه المتلقّي، و إثارة حيرته و استغرابه، ليبدأ رحلة البحث و التأويل، و خلق دلالات جديدة تخوله الدخول إلى عالم النّصّ و صناعة الحدث عن طريق التأويل .

و الحقيقة أنّ الاستفهام في هذا المقطع ورد مرّة واحدة، من دون محاولة الحصول على ردّ أو جواب لتُتاح للجارية القدرة على كشف حقائق لا تتضّح إلاّ بالسؤال .

لقد خرج التركيب الاستفهامي السابق عن غرض الإخبار الحقيقي ، ليستعمل للتهكم ، فقد دلّت البنية السطحية للتركيب على الاستفهام ، أمّا البنية العميقة فأخذت معنى السخرية و التهكم بصفات الجارية الطويلة الشبيهة في طولها بطول الزرافة . و لم تكتف الجارية القصيرة بهذا الملمح بل نراها تخلق تفاعلاً بين الاستفهام و النداء لتمزج بين التنبيه و الاستغراب ، لأنّ النّداء يُفيد طلب الإقبال على الأمر، و الاستفهام طلب السؤال عنه ، فصيغتا النداء و الاستفهام تضافرتا لتدعما موقف الجارية القصيرة و هي تتهكم بنظيرتها الطويلة فتراها تارة زرافة ، و تارة ناقة عشير و أخرى قصبة نشير.

من هنا يمكن القول أنّ اعتماد الحضرمي على هذه الآليات الحجاجية مكنته من التأثير على ذهن و قلب المتلقي ، ذلك التأثير الذي من شأنه يجعله خاضعًا لما يعرض عليه .

5. خاتمة:

إنّ تأسيس الخطاب المقامي وتحقيق خطته الإقناعية يحتاج إلى استحضار جملة من الآليات الحجاجيّة المتكئة على حضور سليم للفظ المفضي إلى تجسيد صحيح للمعنى ما يضمن علاقة منطقية بين الحجة و نتيجتها.

و قد خلص البحث إلى جملة من النتائج يمكن سردها على النحو الآتي :

_ النّص المقامي نص حجاجي بالدرجة الأولى ، لما يحمله من خصائص بلاغية متنوعة تساهم في مد جسور التواصل .

– رجع صحاب المقامة في كثير من الأحيان إلى بيئته و تفاعل معها ووظفها في سياق نصه، ليضفر بذلك بالقدح المعلى حين تمكن من تطويع الاستراتجيات المتاحة أمامه لصالح نثره، ما نجم عنه تقريب الأفكار والدلالات إلى ذهن المتلقّي ليتفاعل معها هو الآخر.

_ أثبت البحث أنّ الصورة التشبيهية في النّص المقامي أدت عدّة وظائف كان أبرزها الوظيفة الإقناعية .

_ خرجت الصور البيانية و المحسنات البديعية في نصنا المقامي من دائرة التزيين والزخرف لتبحر في دائرة الإقناع .

6. المراجع

1– Comprendre la stratégie ,edition economica, paris , France,1995 , p 09

2 . دومينيك منغنو و باتريك شارودو، معجم تحليل الخطاب ، ، تر/ عبد القادر المهيري و جمادي صمّود مراجعة / صلاح الدين الشريف ، منشورات دار سيناترا ، تونس ، 2008 ، ص 532 .

3 . هيثم الأيوبي و آخرون ، الموسوعة العسكرية، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، 1981 ،ج1، ص66.

4 . أوبيير دريفوس و بول رابينوف ، ميشل فوكو(مسيرة فلسفية)، تر/ جورج أبي صالح ، مراجعة و شروح مطاع الصفدي ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، ص 200.

5 . جمال الدين ابن منظور(ت 711 ه) ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، مج 4، مادة (ح،ج،ج) ، ص38.

6 . جمال الدين ابن منظور(ت 711 ه) ، لسان العرب ، مج 3، مادة (ج،د،ل) ، ص99.

7 . أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت 776ه)، البيان و التبيين ، تح/ عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ج1، ص 76.

8 . طه عبد الرحمان ، في أصول الحوار و تجديد علم الكلام ، المركز الثقافي العربي، المغرب ، ط3، 2007، ص 65.

9 . ينظر ترجمته في:

_ لسان الدين ابن الخطيب (ت 776 ه)، الإحاطة في أخبار غرناطة ، تح/ محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1397 ه –1977 م ،ط1 ج4 ، ص11.

_ خير الدين الزركلي (1396 ه)، الأعلام، دار العلم للملايين ، بيروت–لبنان ، ط15 ، مايو 2002 ، ج4 ، ص 169 .

_ تاريخ ابن خلدون(العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) ، عبد الرحمن ابن خلدون (ت 808ه)، تح/ أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية ، ص 1955.

_ أحمد بن القاضي المكناسي (ت 1025 ه) ، جذوة الاقتباس في ذكر من حلَّ من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور، الرباط 1973، ج2 ، ص444.

_ عبد الله كنون، ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب و السياسة، قدم له/ محمد بن عزّوز ، دار ابن حزم، بيروت_لبنان 1430ه– 2010 م ، ط1، ج2، ص1146 ، 1152.

_ عبد الرحمن ابن خلدون (ت808ه) ، رحلة ابن خلدون، تح/ محمّد بن تاويت الطّنجي ، دار الكتب العلمية، بيروت_ لبنان 1425ه_2004م، ط1 ، ص 40.

_ عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني(ت 1382) ،فهرس الفهارس و الأثبات و معجم المعاجم و المشيخات و المسلسلات، اعتنى به/ إحسان عباس دار الغرب الإسلامي، بيروت_ لبنان، 1402ه_1982م، ط2، ج1،ص 348.

_ أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت 1041ه)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح/ إحسان عباس ، دار صادر – بيروت، 1408ه_ 1988م،، ج5 ،ص240_464.

10 . الحضرمي ، نسبة إلى العلاء بن الحضرمي صاحب رسول الله _صلى الله عليه و سلم_ .

ينظر،_ عبد الله كنون، ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب و السياسة، قدم له/ محمد بن عزّوز ، دار ابن حزم، بيروت_لبنان 1430هـ- 2010 م ، ط1،ج2 ،ص 1146.

11 السبتي، نسبــة إلى مدينة سبتــة مسقط رأســه ، و سبتة مدينــة عظيمة على الخليج الرّومي المعروف بالزقاق و البحر يُحيط بها شرقًا و جوفًا و قبلة.

ينظر : عبد المنعم الحميري (ت 750 هـ)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح/إحســان عباس، مكتبة لبنان ، بيروت ، 1984، ط2 ،ص 303 .

12 . عبد الله كنون، ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب و السياسة، ج2 ،ص 1146.

13 . أحمد بن القاضي المكناسي (ت 1025)، جذوة الاقتباس في ذكر من حلَّ من الأعلام مدينة فاس، ج2 ،ص 444.

14 . عبد الله كنون، ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب و السياسة، ج2 ،ص 1147.

15 . و حول هذه الواقعة ينظر:

_ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري(ت 1279 هـ)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (الدولة المرينية) ، تح/جعفر الناصري و محمّد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955، ج 3 ،ص 82.

16 . المرجع نفسه،ج2 ،ص 1149.

17 . عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ط2، ج2 ،ص 491 .

18 . عبد الله كنون، ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم و الأدب و السياسة، ج2 ،ص 1148، 1152 .

19 . عبد العزيز شرف ، وسائل الاعلام و مشكلة الثقافة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1999، ص 40.

20 . أبو العباس القلقشندي (821 هـ) ، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الفكر، دمشق ، 1987 ، ج1، ص 243.

21 . محمد العمري ، في بلاغة الخطاب الإقناعي مدخل نظري و تطبيقي لدراسة الخطابة العربية (الخطابة في القرن الأول نموذجا) ، افريقيا الشرق ، المغرب ، ط2، 2002، ص 90.

22 . عبد الله كنون ، النبوغ المغربي في الأدب العربي ، ج2،ص 492 .

23 . سورة التين ، الآية (04) .

24 . عبد الله كنون ، النبوغ المغربي في الأدب العربي ، ج2 ،ص 501 .

25 . سورة طه، الآية (78) .

26 . سامية الدريدي ، الحجاج في الشعر العربي القديم بنيته و أساليبه ، عمان . الأدرن ، 2008 ، ط1، ص 22.

27 . النبوغ المغربي في الأدب العربي ،ج2 ، ص 491 .

28 . الذؤابة، شعر مقدَّم الرأس .

29 . الزاج، عقار يصنع منه المداد .

30 . عرفي، وردت في كتاب " النبوغ المغربي " بهذا اللفظ لكن الأصح هو إيراد لفظة " عرقي" لأنّها موائمة للسياق .

31 . أذفر، يقال ، مسك أذفر و ذفر ، جيد إلى الغاية .

32 . البُرْد، كساء مخطَّطٌ يُلتحف به و المِغْفَر ، زردٌ يُنسج من الدُّروع على قدر الرأس ، يُلبس تحت القلنسوة .

33 . الأرجوان، شجر من الفصيلة القرينة له زهر شديد الحمرة حسن المنظر و ليست له رائحة .

34 . الكافور، شجر من الفصيلة الغازية يتخذ منه مادّة شفافة بلورية الشكل يميل لونها إلى البياض رائحتها عطرية و طعمها مرّ .

35 . عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج 2،ص 492 .

36 . رحمن غركان ، نظرية البيان العربي خصائص النشأة و معطيات النزوع التعليمي (تنظير و تطبيق) ، دار الرائي ، 2008، ط1، ص 228 .

37 . الالتثام، لثم فم المرأة لثما قبله .

38 . عبد الله كنون،النبوغ المغربي في الأدب العربي ، ج 2، ص 492 .

39 . ضياء الدين بن الأثير (637 هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر ، قدمه و علق عليه /أحمد الحوفي و بدوي طبانة ، دار نهضة مصر الفجالة ،القاهرة ، ج1، ص 212 .

40 . عبد الله كنون ، النبوغ المغربي في الأدب العربي ، ج 2 ، ص493 .

41 . الخرافة، حديث باطل لا يمكن تصديقه .

42 . العشير، الزوج و المقصود هنا تشبيهها بالناقة في الطول .

43 . قصبة النشير، لعلها القصبة التي يرفع بها حبل الغسيل حين ينشر .

44 . الصَّاد، داء يصيب الإبل فتسيل أنوفها فتسمو برؤوسها .

45 . قصّد، الشاعر الشعر نقحه و جوده و هذبه ، و العود كسره بالنِّصف .

46 . عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي ، ج 2 ، ص 494–495 .